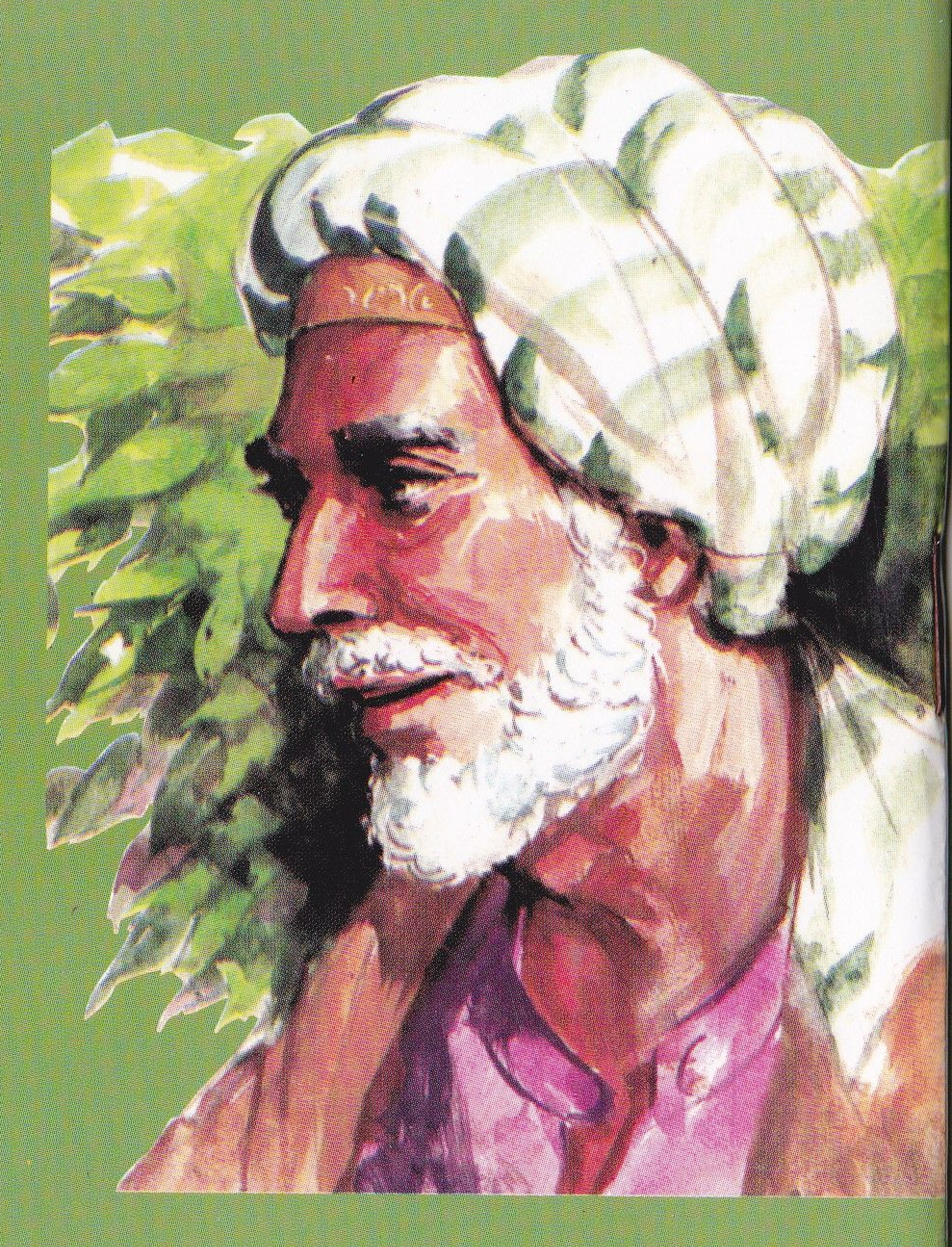
21 علماء العرب

ابن العوام

عالم الزراعة



تأليف : سليمان فياض

رسوم : اسماعيل دياب

منشورات ANEP

علماء العرب

ابن العوام

عالم الزراعة

تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الكتاب: ابن العوام
سلسلة علماء العرب
المؤلف: سليمان فياض
تصميم الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: منشورات ANEP

50، شارع خليفة بوخالفة – الجزائر
الهاتف/فاكس: 213 21 23 64 85 / 213 21 23 89 61
الهاتف: 213 21 23 89 16 / 213 21 23 68 32
فاكس: 213 21 23 64 90
e-mail: editionsanep@yahoo.fr

الطبعة الأولى 2006
ISBN : 9947-21-271-8
Dépôt légal : 1691-2006



عَاشق الأرض

عِندَ غُروبِ الشَّمسِ، عَادَ الصَّبِيّ «يَحْيَى» إلى القَصْرِ الصَّغيرِ سَعيدًا، مُشرِقَ الوَجهِ، وقَد صَبَغَتْ أَشعّةُ الشَّمسِ، ونَسَمَاتُ الهَواءِ بَشْرَتَه السَّمراءَ، وكانت مشاهِدُ الجَدَاوِلِ، والغُدرانِ، وألوانِ الأَشجارِ والنّباتاتِ، لا تَزالُ تتألّقُ فِي عينيهِ.

وحينَ رَأَتْه أمُّه أسلمتْه إلى خدمِ القَصرِ، فذَهَبُوا بهِ إلى الحمّامِ، كَي يَستَحِمَّ، ويُزيلَ ما علَى جَسَدِه من تُرابِ الأرضِ، ثم سَقَوْه شَرابًا دَافئًا، قبلَ أن يَعُودُوا بهِ إلى مَجْلِسِ الأسرةِ، أسرةِ «آلِ العوّامِ».

وَوجدَ «يَحْيَى» مكانَه شاغرًا (خاليًا) بجانبِ أبيه: «محمدٍ بنِ محمدٍ بنِ العوّام»، فجلَسَ بجوارِه، وكانَ الطّعامُ قَد وُضِعَ في صُحُونٍ وأطباقٍ، فَوقَ مَفْرَشٍ منَ القُطنِ الأبيَضِ المَنقوشِ، علَى مائدةٍ مَستطيلةٍ واطئةٍ (منخفضة)، وقَد تَناثَرَتْ أباريقُ الماءِ الخزَفيّةِ المَنقوشةِ، والأكوابِ المُلَوَّنةِ، بينَ الصُّحونِ والأطباقِ. وفاحَتْ روائحُ الطَّعامِ منَ اللُّحومِ المُحَمَّرةِ، والطُّيورِ المَشويّةِ، فثارَت شَهيةُ «يَحْيَى» للطَّعامِ. وامتَدَّتْ يَده مع بقيَةِ الأيدي.

أثناءَ الأكْلِ، قالتْ أمُّ يَحيَى ليَحْيَى:

- نحنُ في خَيرِ حالٍ يا بُنَيَّ. أبوكَ مِن أغنَى المُزارِعينَ المالكينَ في الضّاحيَةِ، بَل في أشبيليّةَ كُلِّهَا، والمُزارِعونَ يَزرَعُونَ لَنَا الأرضَ. وأبُوكَ وإخوَتُكَ لاَ يُمارسُ أحدٌ مِنهُم بيَدَيْه، غَرسًا لَلزّرعِ، ولاَ قَلْعًا للشّجَرِ، ولاَ رَيًّا للأرضِ، ولاَ حَصادًا لِلنَّباتِ، ولاَ

جَنيًا لِلثّمارِ، تاركِينَ الفِلاحَةَ لأهلِ الفِلاحَةِ. وأنتَ يَا «يَحْيَى» تُمضِي نَهارَكَ كُلَّه بَينَ الفَلاّحينَ، تغرسُ يدَيْكَ وقَدمَيْكَ مِثلَهُم فِي الطِّينِ، وتُطارِدُ الفَراشاتِ والزَّنابيرِ مَعَ أبناءِ الفَلاّحين.

فقالَ لَها «يَحْيَى»:

- ومَاذَا فِي ذَلِكَ يَا أُمّي، إنَّني أُحِبُّ مَلْمَسَ الأرْضِ، ورَوائحَ الطِّينِ والنَّباتِ، والأشْجارِ، وألْوانِ الزُّهورِ، والوُرُودِ، والثِّمارِ.

فقالَتْ لَهُ أُمُّ يَحْيَى:

- يا بُنَيَّ. لقد بلغت من العمر عشرة أعوام، وآن لك أن تطلب العلم، والعلم فريضة، مثل إخوتك يا يحيى.

فقالَ أبو يَحْيَى، لأُمِّ يَحْيَى:

- دَعيهِ لِمَا خَلَقَه اللّهُ لَهُ يَا أُمَّ يَحْيَى. إنَّ إخوَتَه لاَ يُحبّونَ الأرضَ مِثلَ حُبِّه لَها. ولسوْفَ يَصيرُونَ أعيانًا، ووُجهاءَ ومُوَظَّفينَ، في أشبِلْيَةَ، أو قُرطبة، أو غَرْنَاطَة، ولَن يَرعَى أحَدٌ لَهُمْ أرضَهُم وأرْضَهُ، من بَعْدِنَا، سوَى «يَحْيَى». والأَرْضُ، لِكَيْ تعمُرَ يا أُمَّ يَحْيَى، لاَ بُدَّ لَها، مِن أن تَرَى، فِي

كُلِّ نَهارٍ، ظَلَّ صَاحِبَها. وطَلَبُ العِلْمِ لَم يَحِنْ أَوانُه بَعدُ يَا أُمَّ يَحْيَى.

عِندَئِذٍ، اندَفَعَ «يَحْيَى» قائلاً لأُمِّه:

- الزِّراعَةُ، أيضًا، عِلْمٌ يا أُمِّي، وإذَا لَم تَكُنْ عِلْمًا، لَهُ كُتُبٌ، فَلَسَوْفَ أجعَلُهَا عِلْمًا بِمَشيئَةِ اللَّهِ، وأُؤَلِّفُ فيهَا كِتابًا.

ونَظَرَ الكُلُّ إليه مُعْجَبِين بِطُموحِه. وقالَ لَهُ أَبُوه:

- لِكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَى يَا يَحْيَى، ولَسَوْفَ تَتَحَقَّقُ لَكَ أُمْنِيَتُكَ إنْ شاءَ اللَّهُ.

لاَ تَتَعَجَّلْ يا بُنَيّ

كَانَ «يَحْيَى» قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمرِ اثنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وكانَ جالِسًا مَعَ أبيهِ فِي الشُّرفَةِ، يَنظُرُ إلى الضَّوءِ السّاطِعِ فِي السَّماءِ، لِكوكَبِ الزّهرَةِ، وضَوءُ المِشْكاةِ وظِلُّهَا يَتَراقَصانِ عَلَى الأعمِدَةِ والجُدْرانِ. وسَمِعَ «يَحْيَى» أباه يَقولُ لَهُ:

- أَوصَيْتُ لَكَ يَا بُنَيَّ عَلَى كُتُبٍ فِي عِلْمِ الزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، ولَسَوْفَ يَجْلِبُهَا (يأتي بِها) الوَرّاقُ (بَائِعُ الكُتُبِ)

مِن بِلادِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ. وقَد أَكَّدَ لِي الوَرّاقُ أَنَّ الفِلاحَةَ عِلْمٌ، وبِها كُتُبٌ أَلَّفَها اليُونانِيُّونَ، والمِصْرِيّونَ، والبَابِلِيّونَ، والأَشُورِيّونَ، والهُنودُ، والعَرَبُ أيضًا، مِن أَهلِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، والأندَلُس أيضًا.

فَصاحَ «يَحْيَى» بِفَرَحٍ:

- إنَّنِي أَعرِفُ الآنَ القِراءَةَ والكِتابَةَ والحِسابَ. سَأَقْرَأُ كُلَّ الكُتُبِ التِي يَأتِي بِها الوَرّاقُ.

فَقالَ لَه أَبُوه:

- مَهلاً يَا بُنَيّ. لِكُلِّ شَيءٍ أَوانُه. لَقد لَعِبْتَ كَثيرًا، وعِشْتَ طُفولَتَكَ، وصارَ عَلَيْكَ أَوَّلاً أَنْ تَحْفَظَ القُرْآنَ الكَريمَ، وتَدْرُسَ أَحاديثَ «المُوطَّأ» لإمامِ مَالِك، وعُلُومَ اللُّغَةِ والدِّينِ، ومَا لاَ أَدْرِيه مِنَ العُلومِ التِي لاَ بُدَّ لَكَ مِن مَعْرِفَتِها، والتِي سَيَنصَحُكَ بِها العُلَماءُ فِي أشبِيلِيَةَ وقُرطُبَة. وحَتّى ذَلِكَ الحِينِ، سَأَحتَفِظُ لَكَ بِكُتُبِ الفِلاحَةِ، التِي سَيَأتي بِها الوَرّاقُ، فِي خِزانَةٍ مُغلَقَةٍ، إلى أن تَعرِفَ وتُتْقِنَ كُلَّ ما قُلْتُه لَكَ.

وصَمتَ «أبُو يَحْيَى» لَحظَةً، حينَ رَأى وَلَدَه صامِتًا، غيرَ رَاضٍ، فَتَضاحَكَ قائِلًا لَهُ:

– لاَ تَتَعَجَّلْ مَعرِفَةَ الفِلاحَةِ يا يَحْيَى. فَعِلْمُ الفِلاحَةِ يَحتاجُ أيضًا إلى اللُّغَةِ القَوِيّةِ، ومَعارِفِ عُلومٍ أُخرَى، غَيرِ عِلمِ الفِلاحَةِ.

ودخَلَتْ «أُمُّ يَحْيَى» إلى الشُّرفَةِ فِي تلكَ اللَّحظَةِ، فَقالَ لَها «أبُو يَحْيَى»:

– آنَ الأوانُ يا أُمَّ يَحيَى. مِنَ الغَدِ سَيَذْهَبُ يَحْيَى إلى مَكتَبِ الضّاحيَةِ لِيَحفَظَ القُرآنَ، ولَن يَذهَبَ إلى مَزارِعِنا إلاّ مَعِي، بَعدَ صَلاةِ الجُمُعَةِ مِن كُلِّ أُسبوعٍ.

الصندوق

كَبُرَ «يَحيَى». صارَ شَابًّا، لَهُ لِحيَة خَفيفَة، وشارِبٌ رَقيقٌ، تُزَيِّنُ رَأسَه عَمامَةٌ عَرَبيّةٌ أندَلُسيّةُ الطِّرازِ، وحينَ يَخلَعُها عَن رَأسِه، وهُوَ جالِسٌ مَعَ الأُسرَةِ فِي الشُّرفَةِ، كانَ شَعرُ رَأسِه يُرَى مَقصوصًا عَلى الجَبينِ. وكانَ قَد بَلَغَ مِنَ العُمرِ خَمسًا وعِشرينَ سَنَةً، وعَرفَ مِنَ اللُّغَةِ والدِّينِ وعُلومِ الطَّبيعيّاتِ



والرِّياضيّاتِ، والفَلسَفةِ، والمَنطِقِ، والمُوسيقَى، ما يَنبَغِي لِشَابٍّ مِن «آلِ العَوّامِ».

وذاتَ مَساءٍ، وقَد خَلاَ المَجلِسُ إلاّ مِن يَحْيَى، وأَبِي يَحْيَى، قالَ «أبُو يَحْيَى» لِيَحْيَى:

ألاَ تَزالُ عِندَ رَغْبَتِكَ في دِراسَةِ عِلْمِ الفِلاحَةِ، أمْ تَراكَ قَدْ عَدَلْتَ عَن حُبِّكَ للأَرْضِ؟

فقالَ لَهُ يَحْيَى:

- بَلَى يا أبِي. فَمَا زِلْتُ للأَرضِ عاشِقًا، ولِلزَّرعِ مُحبًّا.

عِندَئذٍ نَظَرَ «أبُو يَحيَى» إلى جانبِ الشُّرفَة، وقالَ لِيَحْيَى:

- فِي هذِهِ الخِزانَةِ، ستجِدُ كُلَّ كُتُبِ الفِلاَحَةِ التِي عرفَها العَرَبُ. أَتَى بِها الوَرّاقُ إليَّ مِن سِنِين مَنسوخَةً بِخُطوطِ أفضَلَ النّسّاخِين، عَلَى أفضَلِ وَرَقٍ صَنَعَتْهُ مصر، دَفَعْتُ فِي هذِهِ الكُتُبِ ثَمَنًا غالِيًا لأجلِك يا يَحْيَى، وادّخرتُها لَكَ مِن سِنِين.

فَصاحَ «يَحْيَى» وهو يَنهَضُ، ويحتَضِن صُنْدُوقَ الكُتُبِ:

- لَمْ أرَ هذَا الصُّندوقَ هُنَا مِن قَبل.. أخيرًا. أخيرًا سَأكُونُ عالِمًا بِالفِلاحَةِ.

فَضَحِكَ أبُو يَحْيَى، وقالَ لَه:

- إنْ شاءَ اللّه يا يَحْيَى. إنْ شاءَ اللّه. أَضِفْ مَا فِي هذه الخِزَانَةِ من كتبٍ إلى مَكتَبَتِك، فِي غُرفَتِك. واجعلْها فِي رُكنٍ خَاصٍّ، فَلاَ تَختَلِطُ بِغَيرِها مِنَ الكُتُبِ. خُذْ. هذَا هو مِفتاحُ الصُّنْدُوقِ.

ومَدَّ «أبُو يَحْيَى» يَدَه بِالمِفتاحِ إلى «يَحْيَى»، قَائلاً:

- كُنْ يا يَحيَى لِهذِهِ الكُتُبِ أهلاً، وبِعِلْمِها جَديرًا.

ولَمْ يملِكْ «يَحيَى» نَفسَه، وهو يَأخُذُ المِفتاحَ مِن أبيه، فعانَقَه بفَرَحٍ، وقالَ بِتَأَثُّرٍ شَديدٍ:

- أنْتَ خَيرُ الآباءِ يا أبِي. أنتَ خَيرُ الآباءِ فِي أشْبِيلِيَةَ، بَلْ فِي الأندَلُسِ بِأسرِه.

أَشبيلية

فِي الجَنوبِ الغَربيّ مِن الأندَلُس، يَقَعُ إقليمُ أشْبيلَيَة. وفِي قَلبِ هذَا الإقليم، تَقَعُ أكبَرُ مُدُنه أشْبيلَيَة، إلى الجَنوبِ الغَربيّ مِن مَدينةِ «قُرْطبة»، وإلى الشَّمالِ مِن مَدينةِ «قادِس»، وعَلى بُعدِ ستّينَ مَيلاً مِنَ المُحيطِ الأطلَسيّ (الأطلنطيّ). ويَذكُرُ المُؤَرِّخونَ والجُغرافيّونَ العَرَبُ، أنَّ مَدينةَ أشبيلَيَة، كانَتْ تُحيطُ بِهَا ثَماني آلافِ قَرْيَةٍ، وضاحيَةٍ. ويَرْوِي نَهرُ الوَادِي الكَبيرِ، (جواد الكفير) أراضيَ إقليمِ أشبيلَيَة، لِيَنْحَدِرَ إليه مِن جبالِ «سييرا دي كازورْلا» عَبْرَ إقليمِ قُرْطبة، إلى أنْ يَصُبَّ مياهَهُ في المُحيطِ الأطلَنطيّ. وكانَ إقليمُ أشبيلَيَة يَمْتَدُّ فِي زَمَنِ «ابنِ العوّام» إلى جِبالِ «الأرَك» و«قادس» شَرقًا، وإلى وَادِي «آنَا» غَربًا.

وترتَفِعُ مَدينةُ أشبيلَيَة عَن سَطحِ البَحرِ ٥٤ قَدَمًا، وتَقَعُ فِي وادٍ فَسيحِ الأرجاءِ، على الضِّفّةِ اليُسرَى لِنَهرِ الوادِي الكَبيرِ. وعلى الضِّفّةِ اليُمنَى لِهذَا النَّهرِ، كانَتْ تَقَعُ ضاحيَةُ «آل العَوّام» (طَرْبانَة). ومَعَ أنَّ أشبيلَيَة لاَ تَقَعُ عَلى شاطِئِ البَحرِ، فَقدْ كانَتْ ميناءً عَلى النَّهرِ. وكانَ النَّهرُ بَطيءَ التَّيّارِ

ويَصِلُ مِنَ المُحيطِ الأطلَسيّ فِي هذَا النَّهرِ، فِي اللَّيالِي المُقْمِرة، إلى ما وَراء أشبيلَيَة. ولِذَلِكَ كانَ يَسْهُلُ على السُّفُنِ الدُّخولَ من المُحيطِ إلى النَّهرِ، والخُروجَ مِنَ النَّهرِ إلى المُحيطِ، حامِلَةً البَضائعَ والتِّجاراتِ والرُّكّابَ والتُّجّارَ، مِنَ الأندَلُس بأسرِه إلى دُوَلِ السَّاحِلِ الغَربيّ لأُورُبّا وأفريقيَا، وإلى مَوانِئِ البَحرِ المُتَوَسِّط وجَزائِره، وتَعودَ منها كُلِّها إلى ميناءِ أشبيلَيَة. وكانَ اسمُ أشبيلَيَة قَبلَ وُجودِ العَرَبِ في الأندَلُسِ «سيفيلاّ»، وصارَ اسمُها بَعدَ خُروجِ العَرَبِ مِنَ الأندَلُسِ «سيفيل».

وفِي زَمَنِ الفينيقيّين، كانتْ أشبيلَيَةُ ذَاتَ أهمّيةٍ تجاريّةٍ عاليةٍ، واتّخذَها الرُّومانُ مِن بعدِهم عاصمةً لِمُقاطَعةِ «بيتيكا»، وبَنَوْا بِجوارِها مَدينةَ «أتاليكا». وفِي زَمَنِ «الونداليِّينَ» صارتْ أشبيلَيَةُ عاصِمَةً لِمُلوكهم، وفِي أيّامِ «القُوط الغَربيِّينَ» صارَتْ أشبيلَيَةُ عاصمَةً لمُلوكِ القُوط، إلى أنْ انتَقَلَ مُلْكُ القُوط منهَا إلى مَدينةِ «طُلَيْطلَة» عامَ خمسمائةٍ وسبعةٍ وستّينَ ميلاديّة.

النَّهار لِلمزرعة

لَمْ تَشْغَلْ كُتُبُ الفِلاحَةِ التِي ألَّفَها الأقدَمُون «يَحْيَى»، عَن الاشتِغَالِ، فِي الوَقتِ نَفسِه، بِالزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، فِي مَزَارِعِ أبيهِ الشّاسِعة (الفسيحة). كانَ يُمارِس الغَرْسَ لِلزَّرْعِ، والشَّتْلَ لِلنّباتات، والبَذْرَ لِلحُبُوبِ، والتَّخطيطَ لأحْواضِ الأرضِ، والتَّسميدِ للتُّرْبَةِ، والسَّقْيَ لِلنَّبتِ والشَّجَرِ، والتَّهذيبِ للأوراقِ، والجَثَّ (القَطْع) للأعشابِ الضّارَّة، والحَصْد للأعْواد، والجَنْيَ للثَّمَرِ، بيدَيْه حينًا، وبإشرافه عَلى الفَلاّحين حينًا آخرَ، حَسْبَما تَدعُوه الضَّرورَةُ إلى هذا أو ذَاكَ. كانَ يَفعَلُ ذَلِكَ في كُلِّ نَهارٍ.

وفِي اللَّيلِ، في كُلِّ لَيلَةٍ، كانَ «يَحْيَى» يَجلِسُ إلى كُتُبِ الفِلاحَةِ، كِتابًا بَعدَ كِتاب، يَقرَأُ، ويَدرُس، ويقارِنُ بينَ كُلِّ ما كَتَبَه عُلماءُ الفِلاحةِ السّابِقون، عَن كُلِّ نَبتَةٍ، أو شَجَرَةٍ، أو حَيَوانٍ، أو طَيرٍ.

وفِي الصَّيفِ، بَعدَ أن يَنامَ كُلُّ أهلِ القَصرِ الصَّغير، كانَ جُلوسُه في الشُّرفَةِ، عَلى ضَوءٍ ساطِعٍ لِمِشْكَاوات عَديدَة، زَوَّدَ بها سَقْفَ الشُّرفَةِ. وفِي الشِّتاءِ، كانَ جُلوسُه في غُرفَتِه، مُستَدفِئًا، والمَطَرُ يهطُل غَزيرًا بالخارِجِ، وحباتُ الثَّلجِ تطرُق نافِذَتَه كَدَقّاتِ الدُّفوفِ والطُّبُولِ.

مَفرقُ الطُّرُق

وذاتَ لَيلَةٍ، وهوَ جالِسٌ بالشُّرفَة، دخلَ عليه أبُوه، وهو عاكِفٌ على كُتُبٍ مفتوحةٍ، فوقَ مِنْضَدةِ الطَّعامِ الخالِيَةِ، واستأذَن «أبُو يحيى» في الجُلوسِ قَليلاً مَعَه. وقالَ ليحيَى:

- مَا كُلُّ هذِهِ الأوْرَاقِ، مع كلِّ تِلْكَ الكُتُبِ؟

فقالَ لَهُ «يحيى»:

- في هذِهِ الأوراقِ كلُّ ما دوّنتُهُ مِن مُلاحَظَاتٍ على تلكَ الكُتُبِ، في كلِّ ما كَتَبَه السابِقُون، عَن: النّباتِ، والشَّجَرِ، والزَّهرِ، والحَيَوانِ، والطَّيرِ. وقَد اختبرْت كلَّ ما قالُوه، وقارنْتُ بَينَ كلِّ ما ذكرُوه، عَن اختيارِ الأرضِ، واختبارِها ونَوْعِ النَّبتِ، وما يصلُح لهُ من الأرضِ، وطَريقةِ الغَرسِ وموعدِه، وطريقةِ السَّقْيِ ومَوعِدِه، والتَّعَهُّدِ الفلاحِيِّ للأرْضِ ولِلزَّرعِ وكَيْفِيّتِه، وعِلاجِ ما يعرِض للأرضِ والنَّبْتِ مِن أمراضٍ وآفاتٍ، وعَن حَيوانات المَزْرَعَةِ والبَيْتِ وطُيُورِهما.

فَضَحِكَ أبُو يحيى، وقالَ ليَحْيَى:

- تُوشِكُ إذَنْ يا يَحْيَى أنْ تؤلِّفَ كِتابًا، تجمَعُ فيهِ كُلَّ ما قالَهُ الأقدَمُون عَن نَبتِ الأرضِ، وحَيَوانَاتِ الأرضِ وطُيُورِها.

فَقالَ لَهُ «يَحْيَى»:

- لَوْ تَوَقَّفْتُ عَن حَدّ «الجَمْعِ» لِمَا قَالَه السَّابِقُونَ، لَمَا كانَ لِي مِن فَضْلٍ سِوَى فَضلِ «التَّجميعِ» لآراءِ الأقدَمينَ في كتابٍ واحِدٍ. ولا بُدَّ لِي أيضًا مِن اختِبارِ ما قالُوه فِي أرضِ الأندَلُس، وابتكارِ جَديدٍ فِي الزَّرعِ، وتَربِيَةِ الحَيَوانِ والطَّيرِ، أُضيفُه إلى ما ذَكَرُوه. وأُضيفُ مَعَه خِبرَةَ أهْلِ الأندَلُس، مِنَ الفَلاّحين فِي الزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، والتَّربِيَةِ للحَيَوانَاتِ وللطُّيورِ.

وسكَتَ «يَحْيَى» بُرْهَةً (وَقتًا طَويلاً)، وأبُوه يَنظُر إليهِ بإشفاقٍ وحَنَان. وتنهّد «يَحْيَى» ثم قال:

- لا أدري الآن، كيف سأفعَلُ ذَلِكَ كُلَّه. وأظنّ أنّه قَد حانَ الوَقتُ للتَّجربَةِ والعَمَلِ، وانتِظارِ نتائجِ اختِباراتي وتَجرِبَتِي شُهورًا.

وأطرَقَ «أبُو يحيى» طَويلاً، مسندًا رأسَه على كفَّيْه، فوقَ مَقْبَضِ عَصَاه، يفكّر فيما قالَه ولدُه «يَحْيَى».

مَا الفِلاَحَة؟

ورفَع «أبُو يَحيى» رَأسَه، وقَد بَرَقَتْ فِي ذِهنِه فكرَةٌ، وقالَ:

- يَحْيَى. أُريدُ مِنْكَ تَعريفًا، جامِعًا، مانِعًا، للفلاحَةِ، لا زِيادَةَ فيهِ ولا نُقْصَان.

فابْتَسَمَ «يحيَى» وقالَ:

- هل إذَا ذكرتُه لكَ الآن، وإذا رضيتَ كمُزارعٍ قَديمٍ، وخَبيرٍ، عَن هَذَا التَّعريف، تأذَنُ لِي فِي تَجريبِ مَا قالَه الأقدَمُون، فِي أرضِك بالوادِي الكَبير، واختِبارِ ما أفكّرُ فيهِ للزّراعَةِ والفِلاحَةِ، وتَربِيَةِ الحَيَوانِ والطُّيورِ؟

فقالَ لَه أبُوه:

- نَعَم. ولِمَ لاَ؟ وأُموِّلُ لَكَ كل تَجارِبِكَ واختِبارَاتك، فأكسَبُك مُزارِعًا خَبيرًا فِي أرضِ «آلِ العوّام»، ويكسَبُكَ الأندلُسُ كلّه عالِمًا مِن عُلمائِه.

فقالَ لَه «يَحيَى»:

- لكنّ التّجارِبَ، يا أبِي، عُرْضَةٌ دائمًا للنَّجاحِ وللفَشَلِ.

فقالَ لَهُ أبُوه:

- أعرِفُ ذَلِكَ يا يَحْيَى، وحتّى لا يَلحَقَ أيَّ ضَرَرٍ بأراضِيَّ كُلِّها، سأُعطيكَ قِطَعًا صَغيرةً مِنَ الأرضِ، تَقومُ فِيها بِتَجارِبِك، واختَرْ أنتَ بِنَفسِكَ، أيَّةَ أراضٍ تُريدُها.

عِندَئِذٍ قالَ «يَحيَى»:

- فَلاحَةُ الأرضِ هِيَ: إصلاحُهَا، وغِراسَةُ الأشجارِ فِيهَا، وتَركيبُ ما يصلحُ منهَا للتَّركِيبِ، وزِراعَةُ الحُبوبِ المُعتَادِ زِراعَتُها بِالأرضِ، وإصلاحُ ذَلِكَ وإمدادُه بِمَا يَنفَعُه ويُجَوِّدُه. وعِلاجُ ما يعرِضُ له بِمَا يَدفَعُ الآفاتِ عَنهُ.

عِندَئِذٍ قالَ «أبو يحيى» لابنِهِ ضَاحِكًا:



- حِينَ رُزِقْتُ بِكَ يا يَحْيَى، رَجَوْت أن يَخلُدَ اسْمِي، مِن بَعْدِي بِكَ، وبإخْوَتِك. لكنْ يَبدُو لِي الآنَ، أنَّ جَدَّنَا «العَوّام» نَفسَه، طَيَّبَ اللَّهُ ذِكْرَاه، ورطَّبَ ثَرَاه، سَيَخلُدُ بِكَ يا بُنَيّ.. لَو..

وسَكَتَ أبُو يحيى، فقالَ لَه يَحْيَى:

- لَو..

فتَنَهَّدَ أبو يحيى، ثم قَال:

- لَوْ وَضعتَ كتابًا باقيًا فِي الفِلاَحةِ، يَحملُ عَلَى غِلافِهِ اسمَك: أبو زكَريّا : «يَحيَى بن محمدٍ بن محمدٍ بن العَوَّام».

فوق الجسر المعلق

غادرَ «يَحيى» ضاحيَةَ «آلِ العوّام»، عَلَى الضِّفّةِ اليُمنَى لِنَهرِ الوادِي الكَبيرِ، وكانتِ الشَّمسُ تُشرِقُ من وَراءِ الجِبالِ البَعيدة. وآثرَ أنْ يَعبُرَ «الجِسْرَ المُعلّق» فَوقَ النَّهرِ، تارِكًا قَنطرَةَ النَّهرِ وراءَه، فَسارَ عَلَى الشَّاطِئِ المَرصُوفِ المُشجَّرِ، حتّى بَلَغَ الجِسرَ المُعلَّقَ، فَأَخَذَ يُصعِّدُ فيه، كَأَنَّه يَرقَى جَبلاً. وعندَ تيّارِ النّهرِ غربًا، دُونَ أشرِعةٍ، نَحوَ المُحيطِ، وهي تَشُقُّ النَّهرَ، ضِدَّ التّيارِ، وقد شَرَعَتْ أشرِعَتَها البَيْضاءَ العَديدةَ.

ومِن مَكانِه المُرتَفِع، فَوقَ الجِسرِ المعلّق، رَأَى أشبيلِيَةَ، وراح يَتأمَّلُ عُمرانَها الفَسيحَ، الضَّخمَ: قُصورَ «آلِ خَلدون»، وقُصور

«الصَّنهاجيِّين»، وَدُورَ المُوريسكيِّين (الأسبان المسلمين)، دُورَ اليَهودِ، وقد بَدَتْ فِي أَحياءٍ فَصلَتْ بَينَها شوارِعُ كُبرَى، تَتفرَّعُ منها الحارَاتُ والأَزِقّةُ، والدُّرُوب والمُنعَطَفات. ورأَى المَسْجِدَ الكَبيرَ الذي شَيَّدَه أبو يُوسُفَ يَعقُوب سُلطانُ المُوَحِّدين، كانت مئذَنَتُه شاهقَةَ الارتِفاعِ، يَزيدُ ارتِفاعُها على ثلاثمائةِ قَدَمٍ، وتعلّق بصرُهُ بُرهةً بشِعارٍ دينيّ يَدُورُ مَعَ الرِّيحِ، بأعلَى المِئذَنَةِ، وكانَت المِئذَنَةُ ذاتَ نَوافِذَ تَجمَعُ بَينَ طِرازَيْن: القُوطِيّ والعَرَبِيّ. ورَأَى القَنطَرَةَ التي تَحجِزُ مِياهَ النَّهرِ فِي أَوقاتِ الجَزْرِ حينَ يَغيبُ القَمَرُ، والأَرصِفَةَ المُمتَدَّةَ عَلَى شاطِئِ نَهرِ الوادي الكَبيرِ، والأَسوارَ الهائلَة، والخَنادقَ العَميقة، ودارَ الصِّناعَةِ الحَربيّةِ التي شَيَّدَها عَبدُ الرَّحمنِ الثّاني، ومُعسكَراتِ قُواتِ المُوَحِّدين بَينَ الخَنادقِ وأشبيلِيَةَ، وبَينَ الخَنادقِ والأَسوارِ، وفيمَا وراءَ الأَسوارِ. ورَأَى قَصبَتَي المَدينةِ، والحَمّاماتِ، والمَساجِدَ الصُّغرَى، والأَسواقَ، ودُورَ المَكتَباتِ العامّة، وأَنديَةَ المُوسيقَى والغِناءِ بالحَدائِقِ والبَساتينِ.

وتركَّزَت عَيناهُ عَلَى قَصرِ السُّلطانِ الكَبيرِ «بُرج الذَّهب» يَتوسَّطُ المَدينةَ وأَحياءَها، كانتْ نَوافِذُه وشُرُفاتُه البَيْضاء،

وأعمدَته الذَّهَبيّة المثمّنة، تُومضُ (تبرُق، تَلمَعُ) في ضَوءِ النَّهارِ، ورأى البُرجَ العالِي الذي شُيِّدَ لِيَحميَ شاطِئَ أشبيلْيَةَ من التَّآكُلِ. ورأى بَساتينَ أَشجارِ الزَّيتُونِ، والنَّخيلِ. التي جَلَبَها العَرَبُ مَعَهُم إلى الأندَلُس مِنَ الشَّامِ، ورأى مَزارِعَ قَصَبِ السُّكّر، والزَّعفرانِ، والقُطنَ الذي تَنفَرِدُ مَزارِعُ أشبيلْيَةَ بِزراعَتِه، وأشجارِ اللَّيمُون، والعِنَبِ، والخُضَروَاتِ، والحُبوبِ، ورأى مراعِيَ الأغنامِ والأبقارِ.

وكانَتْ الطُّيورُ تُحلِّقُ في سَماءِ النَّهرِ، وفَوْقَ المَدينَةِ، والمَزارِعِ الخَصيبَةِ، حينَ انْحَدَرَ يَحْيَى مَعَ انحِدارِ الجِسْرِ المُعلّق، ليدخُلَ «أشبيلْيَةَ» مَعَ الضُّحَى، كَيْ يَلْقَى أباهُ، في صَحْنِ البُرتُقالِ، بالمسجِدِ الكَبيرِ.

الشّاعر والعَالم

رأى «يَحْيَى» أباهُ جالِسًا مَعَ الشّاعِرِ الزّجّال «ابنِ قزمان». كانَ «ابنُ قزمان» يَعرِفُ «يَحْيَى»، وينزلُ ضَيفًا عَلى أبيه، لليلةٍ أو لَيْلَتَيْنِ، كُلَّمَا هَلَّ (أقبل) فَصلُ الرَّبيعِ. ورحّب «ابنُ قُزْمان» بِيَحْيَى قائِلاً:

- عِندي سُؤالٌ حائِرٌ، أَسأَلُكَ إيّاه:

وجَلَسَ «يَحْيَى»، فقالَ لَه «ابنُ قُزْمان»:

- لِماذَا اختَرْتَ الزِّراعَةَ والفِلاحَةَ عِلمًا، دُونَ سِوَاهُما مِن سائِرِ العُلومِ. وقَد كَتَبَ فيهَا السَّابِقُونَ من قَبلِكَ، وشَغَلْتَ نَفسَكَ بِها، وعَقْلُكَ راجِحٌ، وفِي الأندَلُس آلافُ الآلافِ مِنَ الفلاّحين، مِن الأسبانِ، واليَهودِ، والعَرَبِ، والبَربَرِ، والصَّقَالبَةِ.

فقالَ لَهُ «يَحْيَى» ضاحِكًا، وأبُوه يرقبُ الحوارَ بِشَغَفٍ:

- ولِماذَا اخْتَرْتَ أنتَ الزَّجَلَ، لتَكْتُبَ فِيهِ شِعْرَك، دُونَ غَيرِه مِن أنواعِ الشِّعرِ.

فَقالَ لَه «ابنُ قزمَان»:

- الزَّجَلُ يا يَحيَى فَنٌّ اختَرَعتُه، وابتَكَرتُه ابتِكارًا، خارِجَ أوزانِ العَرَبِ وبُحُورِها، وبلُغَةِ العَامَّةِ من أهلِ الأندَلُس. فَأنَا بالزَّجَلِ فِي الشِّعْرِ رائِدٌ. أمَّا أنتَ، فَماذَا سَتُضيفُ فِي الزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، إلى ما كَتَبَه فِيها المَلِك الأفضَلُ الرَّسولِيّ، والأندلسِيّان: أبُو الخَيرِ،

والطَّنغرَى، والمَشرَقِي: ابنُ وَحشيّة، والأشبيليّيّن: ابنُ الحَجّاج، ومحمّد بن إبراهيم البَصّال. ومِن قَبلِهِم: يُونْيُوس، وديسقُوريدُس، قسطُوس، وأرسطُو.

بُهِتَ «يحيى»، لَحظَةً، وَوَجَمَ، فَمِن أينَ لابنِ قُزْمَان هذهِ المَعرِفَةُ بِمَن كَتَبُوا فِي عِلْمِ الفِلاحَةِ. وأَخرَجَه أبُوه مِن حيرتهِ حينَ قالَ لَه:

- كانَ ابنُ قُزْمَان مَعِي، وأنَا آخذُ مِنَ الوَرّاق كُتُبَ الفِلاحَةِ التِي جِئتُ بِها إليكَ، وذاكِرَتُه كَمَا تَرَى، لاَ تَنْسَى.

عِندَئِذٍ قالَ «يحيى» لابنِ قُزْمَان:

- العِلْمُ يا «ابنَ قُزْمَان» لاَ يَتَوَقَّفُ عِندَ حَدّ، فِي بَلَد، ولاَ فِي زَمَن. وعِندِي مَا أُضِيفُه إلى هذَا العِلْم ممَّا يفعلُه أَهلُ الأندَلُس، وممَّا أبتَكِرُه أنَا بِتَركيبِ النَّباتاتِ بالتَّطعيمِ والتَّلقيحِ، ولسوفَ أجعلُكَ تَأكُلُ تُفّاحًا فِي غيرِ أوانِه، وبُرتُقالاً لَهُ طَعْمُ النّارَنْج، أو اللَّيمون، وأُرِيكَ وَرْدًا أبيضَ اللَّونِ، وعِشْقِي للزِّراعَةِ يَرجِعُ إلى أنَّ الزِّراعَةَ تَبدَأُ عِندَهَا المَدَنيّةُ، ويَبدأُ الاستِقرارُ للبدَوِيّ فِي الصَّحراءِ، ولِلصيّادِ في الغَابَةِ والجَبَلِ.

عِندَئذٍ التَفَتَ «ابنُ قُزْمَان» مُشرِقَ الوَجهِ إلى أبِي يحيى، وقالَ لَه:

- سَوْفَ يَكونُ وَلَدُكَ هذَا يَا أبا يحيى خالِدَ الذِّكْرِ.

فقالَ لَه أبُو يَحيى:

- ما دُمْتَ راضِيًا الآنَ عَن يَحيى، فَأَنْشِدْنِي وإيّاه، أحْدَثَ زَجَلٍ كَتَبتَه كَي تَتَغَنَّى بِهِ مُغَنّيّاتُ أشبيلِيَةَ فِي القُصورِ، والبَساتينِ.

فقالَ لَه ابنُ قُزْمَان:

- لاَ واللَّهِ، حَتّى أسمَعَ مِن وَلَدِكَ هذَا وأعرِفَ: من أيْنَ جاءَ أهلُ الأندَلُس بالفُولِ، والبَصَلِ، والطَّماطِمِ، والتُّوت، والفَجلِ، والخِيارِ، والبَهارات، والكُمَّثرَى، والتُّفّاحِ، والنَّخيلِ والزَّيتُونِ، ومِن أيْنَ عَرَفَ أهلُ الأندَلُسِ فُنونَ الرَّيِّ بالأحواضِ والقَنَواتِ، وخَزْنَ المِياهِ، وحَفْرَ الآبارِ.

مِن أينَ؟

سَكَتَ يحيى مُفكّرًا وأخَذَ يَستَجمِعُ ذاكرتَه، ثم قالَ:

– سألتَ سُؤالاً يَسيرًا يا بنَ قُزْمان: العَرَبُ جاءُوا إلى الأندلُسِ بالفُولِ والبَصَلِ مِن مِصرَ، وبالطَّماطِمِ مِن إيطاليا، والتّوتِ والفَجلِ مِن الصِّين، والخيارِ والبَهاراتِ مِن الهِند، والسَّفرجَلِ مِن كريت، والجَوْزِ مِن فارس، والنَّخيلِ والزَّيتونِ مِنَ الشّام. والعَربُ نَقَلُوا إلى الأندلُس، وأنهارِ الأندلُس، وصَحارَى الأندلُس، فُنونَ الرَّيِّ بالأحواضِ، والقَنَواتِ، وخَزْنِ المياهِ، وصَرْفِها، وحَفْرِ الآبارِ.. مِن مصر.

فَضَحِكَ ابنُ قُزْمَان، وقالَ:

– أنتَ للزِّراعَةِ مُؤرِّخٌ أيضًا، الآنَ فاسمعْ، آخِرَ زَجَلٍ كَتَبْتُه.



كِتاب الفِلاحة

نَجَحَ «ابنُ العَوّام» فِي تَأليفِ كِتابٍ جَعَلَ عُنوانَه: «كِتابُ الفِلاحةِ» وقَدَّمَ لَه بِمُقدِّمَةٍ طَويلةٍ رائِعَةٍ، ضَمَّنَها بَعضَ الأَحاديثِ الشَّريفةِ، مثل: «اطلُبُوا الرِّزقَ ولَو فِي حَنايَا الأَرضِ» و«مَنْ غَرَسَ غَرسًا أَو زَرَعَ زَرعًا، فَأَكَلَ منهُ إنسانٌ أو طائِرٌ أو سَبُعٌ كانَ لَه بِه صَدَقَةٌ»، و«مَن غَرَسَ غَرسًا فَأَثْمَرَ أَعطاهُ اللّهُ مِنَ الأَجرِ بِمِقدارِ مَا يَخْرُجُ مِنَ الثَّمَرِ». وأَوْرَدَ فِي هذهِ المُقَدِّمَةِ أَقوالاً مَأثورَةً، مثلَ قَولِ المُزارِعِ «قيسِ بنِ عاصِمٍ» لِبَنيه: «عليكُم بإصلاحِ المالِ، فإنَّه منبهةٌ للكَريمِ، ويُستَغنَى بِه عَنِ اللَّئيمِ»، وأَورَدَ أَمثالاً عَرَبِيَّةً عَنِ الزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، مثلَ: «تَقولُ الضَّيعَةُ لِصاحِبِها: أَرِنِي ظِلَّكَ. أَعمُرْ».

وبَلَغَ عَدَدُ صَفَحاتِ «كِتابِ الفِلاحَةِ» أَربعمائةً وسَبعًا وسَبعينَ وَرَقَةً، قَدَّمَ فِيها «ابنُ العَوّامِ» خَمسةً وثَلاثينَ بَابًا، ثَلاثُونَ بابًا مِنهَا عَنِ الأَرضِ والزِّراعَةِ والفِلاحَةِ والمِياهِ والبَساتينِ والأَشجارِ، وخَمسَةُ أَبوابٍ مِنهَا عَنِ الحَيَوانَاتِ والطُّيورِ، مِنَ البَقَرِ، والضَّأنِ، والماعِزِ، والخَيلِ، والبِغالِ، والحَميرِ، والإِبِلِ

وطُيُورِ الحَمامِ، والإِوَزِّ، والطَّواويسِ، والدَّجاجِ، ونَحلِ العَسَلِ، وكِلابِ الصَّيدِ، وكِلابِ الزَّرعِ، وكِلابِ الماشِيَةِ، وبَلَغَ عَدَدُ النَّباتاتِ التي كَتَبَ عَنهَا «ابنُ العَوّام» خمسمائةً وخَمسًا وثمانينَ نَبتَةً، طِبِّيَّةً كانَتْ النَّبتَةُ أَو غِذائيّةً، وللزِّينَةِ كانَتْ أَو لِصَدِّ الرِّياحِ والرِّمالِ، عَنِ المَزارِعِ والضِّياعِ. وقَدَّمَ عَن كُلِّ نَبتَةٍ شَرحًا تَناوَلَ فيهِ: اختيارُ الأَرضِ، ونَوعَ النَّبتِ، وطَريقةَ الغَرسِ، ومَوعِدَه، وطَريقةَ السَّقيِ، وموعِدَه، والتَّعهُّدَ (الرعاية) الفِلاحيَّ للنَّبتَةِ، وللأَرضِ، وكَيفيَتَه، وعِلاجَ كُلِّ ما يَعرِض للأرضِ، وللنَّبتِ، مِن أَمراضٍ وآفاتٍ.

واستَنَدَ ابنُ العَوّام، فِي مُؤَلَّفِه الضَّخمِ إلى المَراجِعِ والمَصادِرِ التي أَخَذَ مِنهَا، ورَمَزَ لِمُؤَلِّفيها بِحُروفٍ، يَذكُرُها فِي كِتابِه، كُلَّما دَعَتْهُ الأَمانَةُ لإسنادِ (لنسبه) الرَّأيِ إلى صاحبِه. فالغَرناطِيُّ رَمْزُه (غ)، وجالِينُوس رمزُه (ج). وقَسطُوس رمزُه (ق)، وأَرسَطو رمزُه (طط)، وطَامترى رمزُه (ط)، وهكذا، عَلى أَحدَثِ ما يَتَّبِعُه العُلَماءُ الآنَ في عَصرِنا الحَديث، مِن وسائِلِ التَّرميزِ.

مَعَ أميرِ أشْبِيلية

وذاعتْ شهرَةُ «ابنِ العوّام» في أشبيلِيَةَ، والأندلُسِ بأسرِه بعدَ نَشرِ الورّاقِ لمؤلّفه: «كتاب الفلاحة»، وصارَ يُشارُ إليه بالتَّقديرِ كعالِمٍ خَبيرٍ فِي الزِّراعَةِ والفِلاحَةِ.

ودَعَا أميرُ أشبيلِيَةَ يومًا إليه بِابنِ العوّام. وقالَ له:

– أخذتَ عَن الآخرِين يا ابنَ العوّام، في كِتابِكَ، آراءً ذَكَرُوها فِي الفِلاحَةِ، فَمَن أدْراكَ أنَّها صَحيحةٌ؟

فَقالَ «ابنُ العوّام»:

– يا سَيِّدي، أنَا لَم أُثْبِتْ في كِتابِي مِن آرائِي، ولاَ آراءَ سِوايَ، إلاّ ما جَرّبْتُه مِرارًا، وصَحَّ لَدَيَّ.

فقالَ لَه الأميرُ:

– وحِينَ لا يَصِحُّ رَأيُ السَّابِق عليكَ فِي الزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، فماذَا تَصنَعُ؟

فقالَ له «ابنُ العوّام»:

– يا سَيِّدي. أقولُ عِندَئذٍ: إنَّني لاَ أَقطَعُ بأنَّ هذا الرَّأيَ يَصِحُّ فِي بِلادِنا رُبّمَا لبُعْدِ بِلادِهِم عَن بِلادِنا، واختِلافِ أرضِهِم وجَوِّهِم عَن أرضِنا ومُناخِنَا. وحِينَ تَجِدُ وَقتًا لِقِراءَةِ كِتابِي، ستَجِدُ صِدْقَ ما قُلْتُه لَكَ.

فابْتَسَمَ أميرُ أشبيلِيَةَ، وقالَ لابنِ العوّام:

– قيلَ لِي إنَّكَ حَدَّدتَ أيضًا مَقاييسَ الأَراضِي، وعَرَّفتَ المُصطَلَحاتِ الخَاصّةِ بالزِّراعَةِ والفِلاحَةِ، مِن نَبْشٍ، وحَرْثٍ، وشَتْلٍ، وتَسميدٍ. إنَّكَ عالِمٌ حقًّا، فَهكذَا يَفعَلُ العُلَماءُ، حِينَ يَحرِصُونَ عَلى تَعريفِ المُصطَلَحاتِ.

وسَكَتَ أميرُ أشبيلِيَةَ، ثم قالَ:

– لَدَيَّ يا ابنَ العوّامِ مَزرَعَةٌ، وأَوَدُّ أن أَغرِسَ فِي ضَيعَتي (مزرعتي) هذهِ أَشجارَ الخُوخِ، والمِشْمِشِ، والنّارَنجِ، واللَّوْزِ، والجَوْزِ، وقَصَبِ السُّكّرِ، وكُلَّ ما تَراهُ يا عالِمَ الأندلُسِ، جَديرًا بزِراعَتِه فِي أَرْضِي.

فقالَ لَه «ابنُ العوّام»:

– يا سَيِّدِي الأمير. لابُدَّ لذَلِكَ أَوَّلاً مِن مَعرِفَةِ الأَرضِ. ونَوعِ الشَّجَرِ الصّالِحِ لَهَا، حَتّى نُحَدِّدَ مَوعِدَ الغَرسِ وطَرِيقَتِه، وكَيفيَّةِ السَّقيِ والرَّيِّ، والتَّهذيبِ والتَّشذيبِ، والتَّعَهُّدِ لِكُلِّ نَوعٍ مِنَ الزَّرعِ بِمَا يَصلِحهُ، إلى أن يَكبُرَ، ويَستَوِي عُودُه، ويَنضُجُ، ويَثمِر، عَبرَ الفُصولِ كُلِّهَا.

فقالَ لَه أَميرُ أشبيلِيَة:

– إنْ شِئْتَ أنْ تُشرِفَ عَلى زِراعَةِ أَرضِي، سَأكونُ شاكِرًا لَكَ، وسَعيدًا بِكَ.

فقالَ لَهُ «ابنُ العَوّام»:

– دُلَّنِي أَيُّها الأميرُ أَوّلاً عَلى أَرضِ هذِهِ المَزرَعةِ، ثم أعودُ إليكَ برأيِي فيهَا، ومَا أَراهُ صالِحًا لِزراعَتِه بِها.

خَبيرُ الأَرض

وعادَ «ابنُ العَوّام» إلى أَميرِ أشبيلِيَة، وقالَ لَه:

– رَأَيتُ أرضَكَ أَيُّهَا الأَميرُ، فأوّلُ مراتِبِ عِلمِ الفلاحَةِ مَعرِفَةُ الأَرضِ، وقَد وَجدتُها أَرضًا سَوداءَ، والسَّوادُ دَليلُ الحَرارَةِ،

شَديدةُ الغَبرَة (السَّواد)، وفيها تَخَلْخُلٌ معتَدِلٌ فِي التُّربَة، وذَلِكَ يَعني أَنَّها مَسامِية، وخالِيةٌ مِنَ الأَملاحِ، ولَيسَت أَرضًا طِينيّة ناعِمَةً يَضيعُ فِيهَا الماءُ، ولاَ تَثْبُتُ بِها الجُذورُ، ولاَ صُلْبَةً لاَ تَتَشَرَّبُ المِياهَ، ويشُقُّ اختِراقُها عَلى الجُذُورِ. ومِثلُ هذِهِ الأَرض أَيُّها الأَميرُ تَصلُحُ لِزِراعَةِ البُقولِ، والمَوالِحِ، ومَا شِئتَ مِن أَنواعِ الشَّجَرِ المُثمِرِ والمُزهِرِ. وإنِّي أَقبَلُ الإشرافَ عَلى زِراعَتِها، مَعَ أَرضِ أَبِي.

فقالَ لَه الأَميرُ:

– بَشَّرَكَ اللّهُ بالخَيرِ يا ابنَ العَوّامِ. لكِن، خَبِّرنِي: كَيفَ تَعرِفُ الأَرضَ جيِّدَةً، أَو رَدِيئَةً، مُناسِبَةً لِلزَّرعِ، أَو غَيرَ مُناسِبَةٍ.

فقالَ لَه ابنُ العَوّام:

– يا سَيِّدِي. عُلماءُ الفِلاحَةِ، يعرِفون جودَةَ الأَرضِ بِأُمورٍ. يَعرِفُونَهَا بِأَعشابِ نَبتِها، فَمِنَ الأَعشابِ مَا لاَ يَنبُتُ إلاّ فِي الأَرضِ الجَيِّدَة، ومِنَ الأَعشابِ مَا لاَ يَنبُتُ إلاّ فِي الأَرضِ الدَّنِيئَة. ويعرِفونَها بِأَخذِ حَفنَةٍ مِن التُّربَةِ، ورَجِّها فِي ماءٍ حارٍّ، ثم يَذوبُ ماؤُه، ثم تَذوُّقِ مائِه، وشَمِّ رائِحَتِه، فإذا طابَ المَذاقُ والرّائِحَةُ

كانَتْ الأَرضُ جَيِّدَةً. ويَعرِفُونَها بِمُلاحَظةِ مَا بِها مِن نَباتٍ بَرِّي، إذَا كانَ قَميئًا (قَصيرًا) أو قَوِيًّا فارِعًا. فالنّباتاتُ كَواشِف (تَكشِفُ) البيئَةَ. وعَليكَ أَيُّها الأَميرُ إذَا اشترَيْتَ أَرضًا، أو زَرَعْتَ أَرضًا، أَنْ تَتَجَنَّبَ الأَراضِي المالِحَةَ، والنَّزَّةَ (التي تَرشَح ماء)، والرَّخْوَةَ (النّاعِمة)، والحارَّة، والقَابِضَة، والحَامِضَة فالأَرضُ المُعتَدِلَةُ هي الأَرضُ المُناسِبَة للزَّرعِ، وهيَ أَرضٌ لَيْسَت مُفرِطةً في تَخلْخُلِ التُّربَةِ، ولَيْسَتْ قَليلةَ التَّخَلْخُل.

فَضَحِكَ أَميرُ أشبيلِيَةَ، وقال:

- عَلَى الخَبيرِ إذَنْ وَقَعْتُ. فاطلُبْ مِنّي ما شِئْتَ، نَظيرَ إشرافِكَ عَلى زِراعَةِ أَرضِي.

شَمس المَشرِق تَغرب

كانَ القَرنُ السادسُ الهجري، الثّاني عَشَرَ الميلادِيّ، الذي عاشَ فيه «يحيى بنُ العَوّام»، قَرنًا وَسَطًا، بَينَ القرنِ السّابِق عَلَيه، قَرنَ الانقِلاباتِ الجامِحَةِ، والقَرنِ اللاّحِقِ لَه، قرن الخَرابِ الشّامِلِ. كانَ قَرنًا خَاليًا مِنَ الأَحداثِ الكُبرَى، عَلى

مَا جَدَّ (نَشَأَ) فيه من دُوَلٍ جَديدة، تَحِلُّ، بالقَهْرِ والغَلَبَةِ (النَّصر)، مَحَلَّ سابِقَتِها، لَكنّها كانَتْ دُوَلاً من جِنْسِ مَا سَبَقَها مِن دُوَلٍ، ولَيْسَت من دَمٍ دَخيلٍ (غَريب)، أو هَجينٍ (مُختلط الجنس). فَالمُوَحِّدون قَد حَلُّوا في الأَندَلُس والمَغرب مَحَلَّ المُرابِطينَ، والأَيّوبيّونَ قَد حَلُّوا مَحَلَّ الفاطِمِيّينَ فِي الشّام ومِصرَ والحِجازِ، والغُورِيُّون قَد حَلُّوا فِي المَشرِقِ مَحَلَّ الغَزنَوِيِّين. والخُوارَزمشاهيّة قَد حَلُّوا فِي المَشرِقِ مَحَلَّ «السّلاجقة». وكانَ الوَثَنِيُّونَ مِن قَبائِل: «القُره خطَايَ» قَد انتَزَعُوا بِلادَ مَا وراءَ النَّهرِ، نَهرِ «آموداريا»، فِي وَسَط آسْيا، مِنَ العَرَب، والمَسيحيّونَ قَد استَرَدُّوا بِلادَ الكَرَج (جُورْجيا) مِنَ المُسلمينَ. وكانَ المُسلمُونَ يَكسِبُونَ أراضِيَ جَديدةً، فِي أفريقْيا الشَّرقيّة والغَربيّة، عَلى حينَ كانَ الصَّليبيّونَ يَضرِبُونَ فِي طَرِيقِهِم بِالشَّام، عَلى غَيرِ هُدًى، وبِلاَ ثَمَرةٍ ولا نَتيجَةٍ.

وفِي هذَا القَرنِ، ظَلَّ النَّشاطُ العَقليّ عِندَ المُسلمينَ قَوِيًّا، وعَظيمَ الشَّأنِ، لَكِنَّ الآثارَ العَقليّةَ الأَصليةَ التِي أَنتَجَها المُسلِمُونَ، فِي المَشرِقِ، فِي هذَا القَرنِ، كانَتْ أَقَلَّ شَأنًا مِن

آثارهِم فِي القُرونِ الماضيَةِ. فَلَمْ يبلُغْ أئمةُ الفكرِ والعلمِ فِي هذَا القَرنِ دَرَجةَ أسلافِهِمُ الفُحُولِ، بلْ لَقد كانُوا عيالاً على هؤُلاءِ الأسْلاَفِ، ومُقلِّدينَ لَهُم، لأنَّ المُتكلِّمينَ (علماء الكلام) مِن أصحابِ الجدَلِ، والرَّجعيّينَ مِن أهلِ الجُمودِ والتَّقليدِ، كانُوا قَد أصابُوا عُقولَ النَّاسِ بالعُقْمِ (الجدْب) الفكريّ، أو كادُوا يُصيبُونَها به. هكَذَا كانَ الحالُ فِي المَشرقِ العَرَبيّ بأسرِهِ، الذي تَغرُبُ شَمسُه.

قَرن الثّقافة الأندلسية

لكنّ الأندُلس، في الوقْتِ نَفسه، وفي هذَا القَرنِ، كانَ يَعيشُ نَهضةً ثَقافيَةً عَظيمةً، حَدَثَت مُتَأخِّرةً عَن الشَّرقِ بَعضَ الشَّيءِ. وتَمثَّلت هذهِ النَّهضةُ في آثارٍ فِكريّةٍ وعلميّةٍ، تَسمُو فَوقَ آثارِ المُسلمينَ، فكرًا وعلمًا، فِي المَشرقِ الذي تُكبِّلُه (تُقيّده) القُيُود، ويُعجِزُه الجُمودُ.

وقادَ هذِه النّهضةَ فِي الأندلُسِ فَلاسفةٌ أطبّاءُ مِن أمثالِ: ابن طُفَيل، وابن زُهر، وابنِ رُشدٍ، وعُلماءُ مِن أمثالِ: ابن العَوّام،

ومترجمُونَ من العَربيّة إلى اللاّتينيّة، ومن لُغاتٍ مَشرقيّةٍ فارسيّةٍ وهنديّة، ومن اللُّغَةِ اليُونانيّة إلى العَربيّة، يخطئُهم الحصْر. ويتمثّل فِي الإدريسيّ الجُغرافيّ في فَضلُ الأندَلُسِ وصقَلّيّة جَميعًا، فِي نَشرِ الثّقافةِ الإسلاميّة في أورُبّا، فَبدأ الأوربّيُون يُنافسُونَ المُسلمينَ فِي مِضمَارِ (مجالِ) الثّقافةِ الفكريّةِ والعلميّةِ، مُنذُ ذلكَ الحين.

مَدينة تَفوقُ قُرطبة

فِي اللّيلِ، والوقتُ رَبيع، والنُّجومُ تُومِضُ مُزهِرَةً، فِي سَماءٍ بِلا سُحُب، كانَ يَحيى جالسًا مَعَ أبيه، يُنْصِتانِ إلى أصواتِ اللّيلِ فِي المَزارِعِ: القِطَطُ، والكِلابُ، والضَّفادعُ، وحَشراتُ الأرضِ، وحَمحَماتُ الخَيلِ فِي الحَظائرِ. وكانَتِ الظُّلْمَةُ وَسطَ المَزارِعِ، تَبدُو للجالسيْنِ، صافيةً، تَكادُ تُضيءُ، فيَرَى سَعفُ النَّخيلِ وهو يهتَزُّ فِي نَسيمِ أشبيلّيَة، وأعالي الأشجارِ وهيَ تَميسُ (تَميل) يَمنةً ويَسرةً، وكانَ الجَوُّ دَفيئًا، وجافًّا، لاَ رُطوبةَ فيه.

وقالَ «يحيى» لأبيهِ:

– فِي الصَّباحِ، وَقفتُ عَلى جِسرِ أشبيلّيَةَ المعلّق، كعادَتي كلّما ذهبتُ إلى أشبيلّيَةَ، وبَدَت لِي أشبيلّيَةَ وكأنّني أرَاها لأوَّلِ مَرّة. وحدثتْني نَفسِي أنّها تَفوقُ «قُرطبةَ» فِي زَمانِنا هذَا، مَدَنيّةً وثَقافةً.

فقالَ لَه أبُوه:

– لَم يَخدَعكَ ظَنُّكَ يا يحيى. مَدينَتُنا هذِهِ أكثَرُ سُكّانًا مِن قُرطبة، وأوْفَرُ غِنًى وثَراءً. وإذَا كانَتْ قُرطبة لاَ تَزالُ مَدينةً لِعُلومِ الدِّينِ والدُّنيا، فأشبيلّيَةَ الآنَ، فِي عَهدِ المُوَحِّدينَ، لا تَزالُ مَدينةً للفَلسفَةِ، والفَنِّ، والأدَبِ شِعرِه ونَثرِه، مِثلمَا كانَتْ فِي عَهدِ «بَنِي عبّاد».

حِمص الأندلس

وصَمَتَ الاثنانِ بُرهةً، مُستَسلِمانِ لأنغامِ اللّيلِ، ونَسيمِ نَهرِ الوَادي الكَبيرِ، وكانتْ ثَمَّةَ مَصابيحُ فِي مِشكاوات زُجاجيّة تَتدلّى مِن سَقفِ الشُّرفَةِ، تَرُوحُ وتَجيءُ مَعَ الهَواءِ، وقَد بَدَا ضَوؤُها صافيًا، وعَلى زُجَاجِها تَتألّقُ خُطُوطٌ عَرَبيّةٌ مكتوبةٌ، لآياتٍ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ.



وقطعَ «يَحيَى» الصَّمتَ قائلاً:

– سَمِعتُ اليومَ أنَّ مَدينةَ أشبيلّيَةَ كانَ اسمُها، فِي الزَّمَنِ العَرَبيِّ الأوَّلِ: «حِمص»، فَعَجِبْتُ. لأنَّ مَدينةَ حِمصَ بالشَّامِ، ونَحنُ هُنَا بالأندَلُسِ.

فقالَ لَه «أبُو يحيَى»:

- يا يَحيَى. اسمُ «حِمّص» اسمٌ أطلقه العرَبُ على أشبيلَيَة إثرَ فَتحهم لهَا بقَليلٍ. فَرجالُ حاميَتها، آنذاك، كانُوا من أهلِ حِمّصَ، وربَّمَا كانَ الحَنينُ قد اشتدَّ بهِم إلى «حِمّص»، فأطلَقوا اسمَ وَطَنِهم على هذه المَدينة، ربَّمَا ليُوهِموا أنفسَهُم أنَّهم لَم يُغادِرُوها بَعدَ، وربَّمَا لأنَّهُم شعَرُوا أنَّهم لن يُغادرُوا هَذا البَلَدَ إلى نِهايَةِ العُمرِ.

النَّبوءة

وتَنهَّدَ «أبو يَحيَى» وقال:

- كَمْ أخافُ يا بُنَيَّ على أشبيلَيَة، ممَّا يَحملُه الغدُ. فهذهِ المَدينَةُ تُثيرُ أطماعَ الفِرنجة لغِناهَا، وسُكّانُها بينَ مَسيحيِّينَ، ومُورَسيكيِّين، ويَهودَ، وعَرَبٍ من آلِ خَلدون، والصِّنهاجيِّين، والفريقانِ العَربيَّانِ مُتَنافسانِ أبدًا، يُثيرانِ الفِتَنَ، بينَ حينٍ وآخَرَ. والكُلُّ يطمَحُ إلى السَّيطَرةِ على حَركَةِ البَيعِ والشِّراءِ، في أشبيلَيَة والأندلُسِ، ومَعَ الدُّوَلِ الأُخرَى، في الشَّرقِ، والغَربِ.

فَضحكَ «يحيَى» وقالَ:

- هَوِّن عليكَ يَا أبِي. فأشبيلَيَةَ لاَ تَزالُ أقَلَّ المُدُنِ تأثُّرًا بالحُرُوبِ وبالفِتَنِ. فهيَ «مدينةٌ تابعةٌ» تُفتَحُ أبوابُها للفاتِحينَ من بُناةِ الدُّوَلِ الإسلاميّةِ الجَديدةِ. وحبُّ أهلِها للمالِ يَجعلُهم لا يُفكِّرُون في السَّيطَرةِ على مَن سِواهُم، ولاَ المُقاومَةَ لِمَن عَداهُم.

فقالَ أبُو يَحيَى ليَحيَى:

- ولهذَا السَّبَبِ نفسِه يا يَحيَى، قَد تفتَحُ أشبيلَيَةُ أبوابَها أيضًا للفاتِحينَ مِن الفِرنجَة، فهِي كَمَا قُلتَ مَدينةٌ تابِعَةٌ، ولَو قاوَمَت فَلَن يَدومَ حِصارُها طَويلاً. وربَّمَا يَحدثُ لَها مَا أخافُه بَعدَ خَمسينَ عامًا، لا تَزيدُ، وقَبلَ أن تَسقُطَ مَدائنُ أُخرَى بالأندلُس. وإنِّي لأشعُرُ أنّ شَمسَ العَرَبِ تَغرُبُ مِنَ الأندلُسِ، فالمُوَحِّدُون تَتَوالَى هَزائمُهم هذهِ الأيّامِ على أيدِي الفِرنجة في شَمالِ الأندلُسِ يَتَوسَّعونَ في مَمالِكِهم جَنوبًا.

وكَأنَّما كانَ «أبُو يَحيَى» يَقرأُ في صَفحَةِ الغَيبِ، فَقَد سَقَطَت أشبيلَيَةُ، في مُنتَصَفِ القَرنِ التّالِي، في أيدِي الفِرنجة، بَعدَ

حِصارٍ دَامَ ستّةَ عَشَرَ شَهرًا. ولَمْ يَبقَ مِن بُرجِها العالِي سِوَى اثنَتَيْ عَشرَةَ طَبَقَةً، وصارَ مَسجِدُها كاتدرائيّةً (كَنيسةً كُبرى)، وصارَت مِئذَنَتُها بُرجًا للنّاقوس (الجَرَس)، ولَم يَبقَ مِن المَسجِدِ عَلَى حالِه سِوَى صَحْنِ البُرتُقالِ.

ورُبَّمَا كانَ «يحيى بن العوّام» قَد بَلَغَ فِي هذهِ اللَّيلة السّتّينَ مِن العُمْر، فَلاَ أَحَدَ يَعرِفُ لَهُ تَاريخَ ميلادٍ، ولاَ وَفاةٍ، وكُلّ ما قالَه المُؤَرِّخونَ عَنه، أَنَّهُ عاشَ فِي القَرنِ الثّاني عَشَرَ مِيلادِيّ.

❁ ❁ ❁

فِي الشَّرقِ، وفِي القَرنِ العِشرين، كَتَبَ عَن «ابن العَوّام»، ومُؤَلَّفِه «كتاب الفلاحة»: «أحمد عيسى» في كِتابِه: «تاريخ النّبات عند العرب»، وكتبَ عنهُ: «عبد الحليم منتصر» في كِتابه: «تاريخ العلم ودور العلماءِ العربِ فِي تَقدُّمِه». وكَتَبَ عَنهُ «سيد حسين نصر» في كتابِه: «العلمُ والحَضارةُ في الإسلام»، وعَدَّ كِتابَه فِي الفِلاحَةِ، وَاحِدًا مِن الكُتُبِ التي تُضاهِي كُتُبَ الفِلاحَةِ التي تُدَرَّس فِي جامعاتِ العالَمِ اليَومَ. وكَتَبَ عَنهُ «أحمد شوكت



الشَّطّي» في كتابه: «الحضارةُ الإسلاميّة والمُجتَمع العَربيّ»، وَعَدَّ كِتابُه في الفلاحة موسوعةً عن العُلومِ الزِّراعيّةِ القَديمة التي كانتْ مَوجودةً في الأُمَمِ القَديمة، والتي ارتَقَتْ في العالَمِ الإسلاميّ عامّةً، والأندَلُسيّ خاصّةً، ممّا كانَ لَهُ أثَرٌ في تَقدُّمِ الزِّراعَةِ في أوربا، ولاَ تَزالُ هُناكَ كَثيرٌ من المَحاصيلِ الزِّراعيّةِ تُزرَعُ في أسبانيا إلى اليَومِ، ولا يُوجد لَها مَثيلٌ في البِلاد الأوربِّيّةِ، عَلى حين تُوجَد نَظائِرُها في مُعظَمِ البِلادِ العَرَبيّةِ الزِّراعيّةِ.

وفي المَشرِقِ، لمْ يُحقَّق «كتابُ الفلاحة» إلى اليَومِ، التَّحقيقَ المَرجُوَّ له في العالَمِ العَرَبيّ. وتُوجَدُ نُسخَةٌ مِنهُ بِدارِ الكُتُبِ بِالقاهِرة.

* * *

وفي الغَرْب، كانَ المُستَشرِق الأسبانيّ: «كازيرى» أوّلَ مَن نَبَّه في فَهرسِه إلى المَخطوطاتِ الكامِلَةِ لِكِتاب «ابنِ العَوّام» عَن الفِلاحةِ والمَحفوظِ بمكتَبَةِ «الاسكوريال»، وقَد نَشَر المُستَشرق

الأسبانيّ «بانكويرى» هذَا الكِتاب بالعَرَبيّة، مَعَ تَرجَمةٍ أسبانيّة لَه، عامَ 1803 ميلاديّة. وكَتَبَ المُستَشرِق «مايرن» خُلاصَةً لهذَا الكِتاب. وفي المَكتَبَةِ الوَطَنيّةِ بِبَاريس، وُجِدَت النُّسخَةُ الأصليّة لمخطوطِ «كتاب الفلاحة»، وتَرجَمَه إلى الفرنسيّةِ المُستَشرِق الفَرَنْسيّ: «كليمان موليه»، ونَشَرَه في عام 1865 ميلاديّة. وقَد نَقَدَ كُلٌّ من المُستَشرِق «دُوزي»، و«هنكادة» كُلاًّ مِن المُترجِمِ والنّاشِر الفرَنسيّين، ولَمْ يَرْضَ عَن التَّرجَمَتَيْن: الأسبانيّة، والفَرَنسيّة، العالِم الفَذّ «جورج سارتون» مُؤرِّخ العُلُومِ.

* * *

وفي الغربِ، اشْتُهر «كتاب الفلاحة»، لابنِ العَوّام، لِمَا فيه من مَعارف زراعيةً هامّةً، استَمَدَّها من فِلاحاتِ البابِليّينَ والأشوريّينَ والإغريق والمصريّينَ والأندَلُسيّينَ والمَغرِب العَرَبيّ، وأضافَ إليها خبراته وتَجاربَه الثَّمينةَ في حَقلِ الزِّراعَة. وظَلَّ هذَا الكِتاب كِتابًا مَنهَجيًا مُقَرَّرًا عَلى طُلاّبِ الجامعات، الذينَ يَبغُونَ التَّخَصُّصَ فِي النَّباتِ والزِّراعَةِ، عِدَّةَ قُرونٍ.

* * *

وعدّ «ألدُوميلّلى» فِي كِتابِه: «العِلم عِندَ العَرَب وأثَره فِي تَطَوُّرِ العلم العالَمِيّ» ابنَ العَوّام، واحِدًا مِن أطبّاءِ الأندَلُسِ، الذِينَ نَبَغُوا فِي الطِّبّ بِمَا ذَكَرَه فِي «كتاب الفلاحة» عَن الأعشابِ الطِّبّيّةِ، وعَن عِلاجِ الحَيَوانِ. ولَم يَتَرَدَّد المُستشرقُ الألمانِيّ «ماكس مايرهُوف» في القَولِ بأنَّ «كتاب الفلاحة» لابنِ العَوّام، هوَ: «أَحسَنُ الكُتُبِ العَرَبِيّةِ فِي العُلومِ الطَّبيعيّة، وعَلى الأخَصِّ فِي عِلْمِ النَّباتِ». وَيذْكُر العالِم الفَرَنْسِيّ: «دانيال لكلير» فِي كِتابِه «تاريخ طبّ العَرَب»، أنَّ «ابنَ العَوّام» كانَ عِملاقًا فِي الفِلاحَةِ، بِمَا قَدَّمَه مِن مَعارِفَ تَطبيقيّةٍ فِي الزِّراعةِ، وأنَّ إنتاجَه يَتَّسِمُ (يتمَيَّزُ) بالتَّوثيقِ التَّاريخِيّ، الذي يَهتَمُّ بِه علماءُ القَرْنِ العِشرين، لأنّه عاشَ فِي القَرْنِ الثّانِي عَشَرَ المِيلادِيّ، بعقليةِ القَرْنِ العِشرين.

ابن العوام

عالم أندلسي فى الزراعة والفلاحة، وتربية الحيوانات والطيور. عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى. عشق الأرض وأحب النبات. وقضى حياته بأشبيلية فى مزارع أبيه، وألف كتابا فى الزراعة هو كتاب الفلاحة . كتب فيه عن أنواع الأراضى والنبات، والحيوانات والطيور والزهور فى جزأين. وجرب واختبر كل ماكتب عنه وابتكر ورودا متعددة الألوان، وتفاحا يثمر فى غير موعده. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

صدر من هذه السلسلة:



ISBN: 9947-21-271-8
Dépôt légal: 1691-2006